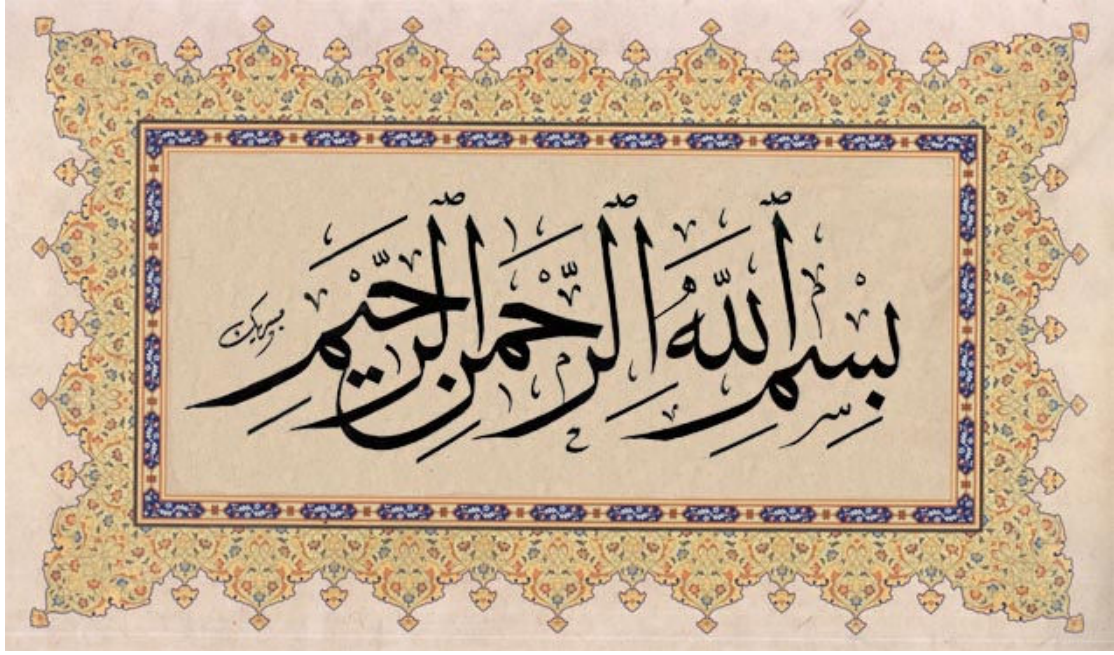


الخط الكوفي في العصور الإسلامية



إعداد الطالب/ فيصل فهد أبو غياظ



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين .

وبعد

يعتبر الفن الإسلامي متميزاً بخطوطه الفنية الدقيقة والرائعة ولقد أطلق
الغربيون على الفن العربي الإسلامي تسميات عدة منها الفن الشرقي،
وآخرون أطلقوا عليه الفن المغربي، ولكن الواقع أن هذه التسمية تصح
فقط لفن شمال أفريقيا والأندلس، على أن تسمية الفن الإسلامي تبقى
مقبولة للدلالة على الفن الذي انتشر في جميع الدول الإسلامية كالفن
الفارسي والتركي والهندي.. وغير ذلك، ومع أن الفن الإسلامي كان
موحدا بالشكل والأسلوب والمضمون إلا أن ثمة فروقا متميزة بحسب
الأقاليم والعصور وبحسب التقاليد التاريخية لكل أمة من الأمم التي دخلت
الإسلام

ابتدأ الفن العربي الإسلامي في عصر الأمويين، وذلك أن الخلفاء الراشدين كانوا أقرب إلى الزهد والتقشف وأبعد عن الترف والتبذير، وقد أنشأ الأمويون في دمشق طرازاً خاصاً سمي الطراز الأموي استمدوه من الفنون الشائعة في سوريا في ذلك الوقت كالفنون المسيحية. ولعل أميز ما يتميز به الفن الإسلامي هو الخط العربي والخطوط. في هذا البحث سوف أتناول هذا الموضوع الخطوط العربية وجمالها وسوف أخص بالذكر الخط الكوفي وجمالياته.



الخطوط الإسلامية الخط العربي

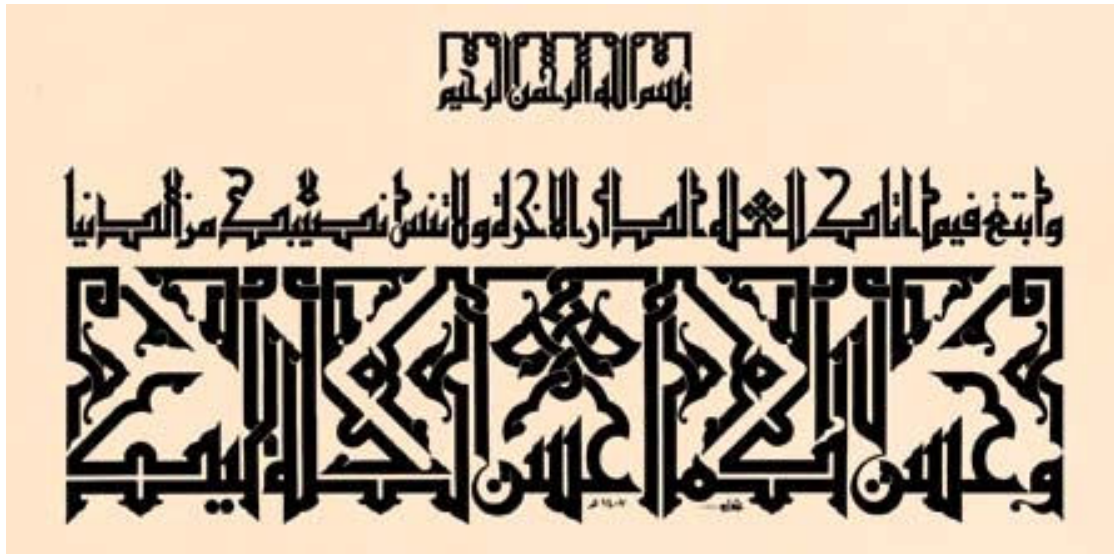
دخل الخط العربي في صميم الزخرفة والنقش العربي منذ فجر الإسلام، وكان أهل الكوفة أكثر المسلمين عناية بالخط الذي أخذ أشكالاً هندسية مضلعة وهكذا استعمل الخط الكوفي، ومن أعمال التدوين والتزيين وكان الخطاطون أعلا الفنيين مكانة لكتابتهم القرآن ثم ظهرت خطوط أخرى كالنسخ والتثلث والرقعة والديواني والريحاني والمغزلي ثم دخلت الزخرفة على الخط الكوفي وخاصة في الشرق المسلم وأصبح منه المشجر أو المستقل عن الزخرفة أو المظفر أو المربع ومن أشهر الخطاطين الوزير ابن مقله وابن البواب وغيرهم



بدايات الخط العربي

الواقع إن الخط العربي بدأ قبل الإسلام، وببدايته قبل الإسلام بدأ فن، لأنه النقوش التي وصلتنا مما قبل الإسلام مثل نقش (زبد) المؤرخ سنة ٥١١م، أو نقش (حران اللجة) المؤرخ سنة ٥٦٨م هي عبارة عن خطوط كوفية كما يقال أو كما سُميت فيما بعد.

وكانوا يطلقون عليه (الجزم) والجزم لها معاني متعددة، من جملة معانيها أنه هي تسوية الحروف، ومعناه تسوية الحروف يعني تعني أنه تنظيم الحروف بشكل معين، ولهذا العرب فيما بعد أطلقوا على هذا النوع من الخط بشكل عام (الخطوط الموزونة)



الخط الكوفي

الخط الكوفي الحديث خط زخرفي ليست له قاعدة ثابتة كالخط الكوفي الذي كتبت به المصاحف وهم الخطاط فيه أن يحقق التنسيق والتماثل و

إملاء الفراغات وفيه تدخل زخارف هندسية ونباتية ويختلط الرقش بالخط وأطلق على هذا النوع الكوفي المزهر أو المورق أو المعشق أو الموشح.



أصل الخط الكوفي

إن أقدم أثر اكتشف حتى وقتنا هذا يتعلق بالخط الكوفي هو مخطوطتان من القرن السادس الميلادي ورسم حروفهما يختلف عن الحروف الدائرية التي وجدت على ورق البردي في القرن السابع الميلادي وتتشابه بخطوط عربية أخرى.

وتم نوع من الشك في أن تسمية هذا الخط باسم الكوفي جاءت كنسبة إلى الكوفة البلدة الإسلامية القديمة في العراق والتي وضع أساسها سنة ٦٣٨هـ.

ويقول مؤلفو الدائرة الإسلامية لقد ظهر في القرن السابع الميلادي نوعان من الكتابة يختلفان عن بعضهما : كتابة على الحجارة والنقود وهي على شكل زوايا، وليس بعيداً أن صلابة المعدنيين اضطرت الكاتب إلى مثل هذه الكتابة.

وكتابة أخرى في الجلود الرقيقة وكانت على شكل دوائر وهي أقرب إلى خط الرقعة وبقطع النظر عن اختيار المعادن التي تؤثر صلابتها في طريقة الكتابة فقد وجد منذ عهد بعيد نوع من الكتابة خاص يكتب على شواهد القبور.



الخط الكوفي ذو المربعات

الكتابة العربية بأسلوب الرسم قد قل وجودها في الوقت الحاضر وبعض تصميمات هذا النوع من الكتابة تشبه الأشكال الهندسية أو الرسوم الفنية. وأول من اعتنى من الخبراء الغربيين بهذه الخطوط ووصفها هو المستشرق/ج.مارشيل الذي رافق الحملة الفرنسية على مصر فقال في كتابه: الذي نشره في باريس عام ١٨٢٨م، ما يلي: (بعض خطوط القرون الوسطى لها أشكال غريبة وتكاد تكون مركبة من خطوط مستقيمة ترتبط مع بعضها بخطوط عرضية صغيرة "شرطات" متوازية أو خطوط عمودية منتهية من أسفلها بزوايا قائمة وليس بها دوائر أو التواءات مطلقاً).

ثم جاء بعده دارسان قديران هما (ر.بك) و(و.رانس) وكان الاثنان أعضاء في المعهد المصري ودرسا هذه الترتيبات المعقدة دراسة فنية

ووضع (ر.بك) دراسات مفصلة عن كثير من الكتب ألفت في الفترة التي بين القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

أما من أين جاءت أو من كان أول من فكر في ابتكار هذه الأشكال في الخطوط العربية فالمؤلفات المتقدمة الذكر لم تتعرض لتلك النقطة إلا إن (ر.بك) أورد في أحد كتبه رأياً يلقي الضوء على هذه النقطة وهو: أن المسلمين بحكم اتباعهم للأحاديث الواردة في منع التصوير كل شيء ذي روح عمدوا لابتكار طرق جديدة لابداء شعورهم الفني ، وكانت تلك الطريقة الجديدة هي تصوير الأزهار وأوراق الأشجار أو الأشكال الهندسية.

وحروف الهجاء العربية لها أشكال فنية لطيفة فأخذ الخطاطون المسلمون يبتكرون صوراً مختلفة من التشبيك والتعقيد الذي هياً لهم صوراً جميلة وألواحاً رائعة فنية دون أن يخالفوا الأحاديث الواردة في التصوير.



تنويعات الخط الكوفي التريبيحي

بدأ ظهور الخط الكوفي القديم خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري- وكان أول ظهوره محتفظاً بالصفات الخاصة بالكتابة العربي في عصر النبوة التي عرفت باسم (الخط المكي أو المدني) ثم عند انتقال

العاصمة الخلافة إلى الكوفة عرفت باسم (الخط الحجازي)، ثم عرفت فيما بعد باسم الخط الكوفي الذي كان على ثلاثة أنواع:

١- الكوفي المربع أو اليابس أو التذكري وسمي لذلك لأن أجزاء الرأسية والأفقية تتلاقى في زوايا قائمة بدون تقويس وكثيراً ما استخدم هذا الفن في حفر أسماء الملوك والأمراء على الآثار والأبنية المنسوبة إليهم وتغلب عليه الضخامة ليصلح للحفر.

٢- الكوفي اللين أو خط التحرير وهو على النقيض من النوع الأول ففيه كثير من التقوسات والانتقالات المستديرة في بعض أجزاء الأحرف كما استخدم بالأشكال الضخمة مثل سابقه في الحفر على الأحجار كما استخدم بالأحجام المصغرة في حالة كتابته بالأقلام على الجلود والأقمشة وبعض الأوراق التي عرفها العرب في هذا العهد.

٣- الكوفي المصحفي : وهو خط جمع بين اليبوسة والليونة وكان مخصصاً لكتابة المصاحف و ظل هذا الخط مفضلاً في كتابة المصاحف على طول القرون الثلاثة الهجرية الأولى (١) وفي القرن الرابع حل محله خط النسخ الذي أخرجه ابن مقلة.

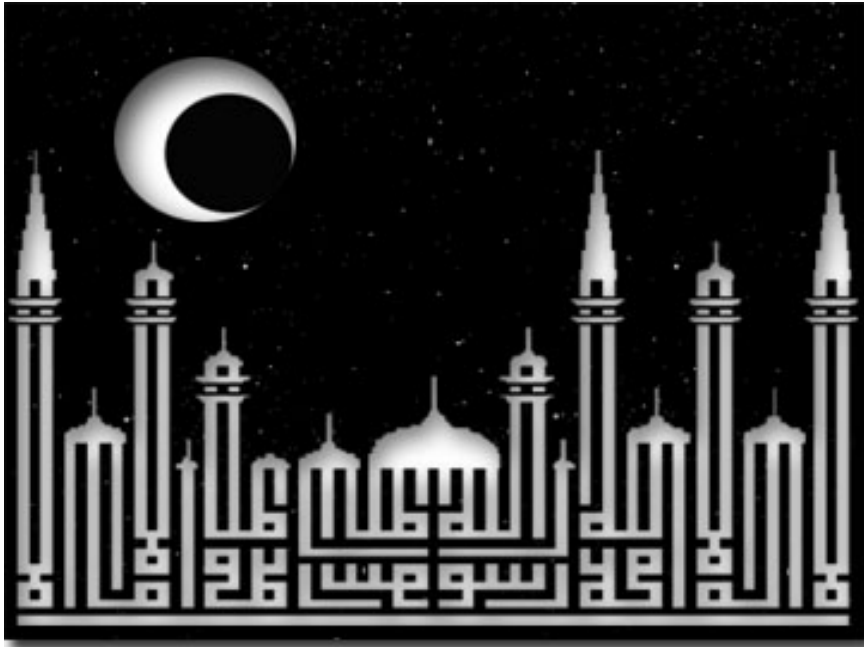
وعرفت جميع الأنواع الثلاثة السابقة باسم الخط الكوفي القديم.. ومن أهم صفات هذه الكتابة :

أ- إنها كانت خالية من النقط التي تميز الحروف بعضها عن بعض كما كانت خالية من رموز الحركات وعلامات التشكيل .

٢- كانت كثيراً من الكلمات خالية من الألف! الممدودة في وسط الكلمة (مثل: الرحمن).

٣- كانت بعض الكلمات المنتهية بتاء التانيث تكتب تاؤها مفتوحة (مثل: رحمه)،

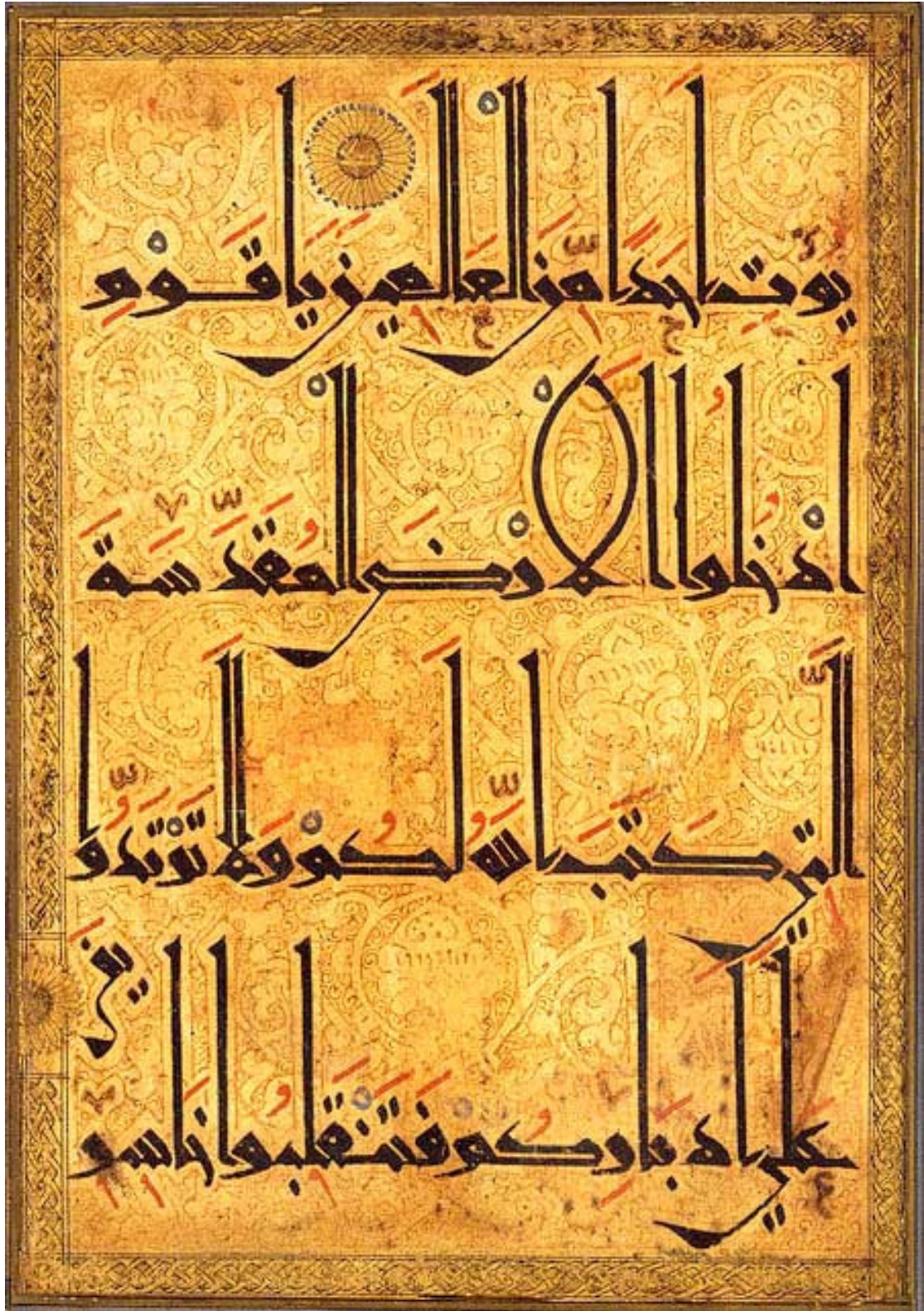
- ٤- الألفات المفردة تنحني عند أسفلها إلى اليمين منتهية بطرف مدبب.
- ٥- حرف الراء أو الزاي له رأس مثلث.
- ٦- حرف العين والغين في الوسط تكتب على شكل .
- ٧- الياء التي تقع في الآخر كانت تبدأ بجزء صاعد قصير يهبط ملتويًا إلى اليسار بحركة أفقية طويلة.
- ٨- حرف الكاف في وسط الكلمة أو في آخرها عبارة عن خطتين متوازيين ينتهي الأعلى منها من اليسار ببروز صغير.
- ٩- القاف المفردة أو الأخيرة، يعرض رأسها بعنق يلتوي على شكل ياء.
- ١٠- حرف النون المفردة أو الأخيرة عبارة عن خط رأسي يتجه رأسه ونهايته السفلية إلى اليسار بجزء صغير.
- ١١- يلاحظ أن حروف الكلمة الواحدة متباعدة .
- ١٢- وأن الكلمة في آخر السطر تكمل في السطر اللاحق له .



الخط الكوفي الحديث

اتضح مما سبق أن الخط الكوفي القديم كان البداية الأولى لانبثاق فنون الخط العربي في أشكالها المتعددة وقواعدها الدقيقة، وظل الخط الكوفي القديم بأنواعه الثلاثة معروفاً لفترة طويلة من الزمن حيث كثر استخدام نوع واحد منه وهو (الكوفي المصحفي) الذي كتبت به المصاحف الكاملة ثم ظهر خط النسخ المتقن الذي وضع قواعده (ابن مقلة) فاستساغه الخطاطون لما له من مميزات فنية تجعله انساب أنواع الخطوط العربية لكتابة القرآن الكريم.

فمنذ القرن السابع الهجري توقف استخدام الخط الكوفي المصحفي في كتابة المصحف في حين أن المذاهب الفنية عند بعض الخطاطين اهتمت به أو اتجهت له بنظرات فنية مبتكرة فاستطاعوا أن يخلطوه بإبداعات فنية لم تكن فيه من قبل فأدخلت فيه التيسيق الهندسي والزخارف النباتية والتوريق على شكل أخص، حيث ظهر فن التوريق في الفنون الإسلامية في مصر منذ بداية القرن الثالث الهجري تقريباً . فهناك فترة تداخل بين عمر الكوفي القديم والكوفي الحديث ظلي كل منهما معاصراً للآخر خلال هذه الفترة ومحتفظاً بلامحه الخاصة، وهي تقع من نهاية القرن الثالث إلى نهاية السابع الهجري.. أي أن الكوفي القديم كان قائماً بلامحه حتى نهاية القرن السادس في حين أن الكوفي الحديث بلامحه الجديدة قد ولد خلال القرن الثالث وبدأ يزدهر وينتشر خلال القرن الرابع وما بعده فظهر للكوفي الحديث أنواع عدة وهي : وهو نوع من أنواع الخط الكوفي الحديث لا يلحق به زخرفة أو تضيفاً و كتب به على شواهد القبور وشاع استخدامه وانتشاره في القرنين الثاني والثالث للهجرة.



٢- الكوفي المورق :

هذا النوع من أنواع الخط الكوفي الحديث تخرج من نهايات بعض حروفه الأفقية أو الرأسية سيقان رفيعة تحمل وريقات نباتية وهذا النوع

هو الذي استحسنه المؤلف في شرح طريقة كتابة الحروف الكوفية في فصل قادم .

وقد ظهر هذا النوع كمرحلة تالية الكوفي البسيط حيث تطور الكوفي البسيط وانتهت نهايات قوائمه (بتفطیح) ثم تحرر هذا (التفطیح) إلى أوراق نباتية وقد بدأ التوريق في الكتابة في بداية القرن الثالث الهجري بمصر انتشر في أواخر القرنين الثالث والرابع .

٣- الكوفي المزهر :

وهو مرحلة متطورة للكوفي المورق حيث تنتهي قوائم حروفه بفروع نباتية وأغصان لها شكل حلزوني وظهر من نهاية القرن الثالث الهجري واشهر ما كتب به في الجامع الأزهر بالقاهرة.

٤- الكوفي المخمل (ذو الأرضية النباتية):

نوع من أنواع الكوفي الحديث يكتب على أرضية نباتية لولبية بالإضافة إلى زخرفة الحروف واشتهر في إيران وكتب به على مسجد السلطان حسن ومسجد الحاكم بالقاهرة

٥- الكوفي المضفر:

وفي هذا النوع يمكن تضفير سيقان بعض الحروف أو تضفر حروف الكلمة الواحدة كما تضفر كلمتان متجاورتان ويمكن أن تجتمع جميع الأنواع .

٦ - الكوفي المربع :

ويسمى المسكر أو الكوفي المربع أو الهندسي المسطر ، ويُرسم هذا الخط بالقلم والمسطرة ، ويقال بأن فكرة الزخرفة في المباني والطوب التي

كانت منتشرة في العراق وفارس قد أوحى للخطاطين بهذا اللون من الخط ويتفرع منه ما يلي:

- **الخط الكوفي التريبيعي الملبوك:** ويتطلب هذا النوع أن تكون كلماته محبوكة حبكاً هندسياً منتظماً يأتي بشكل مربع مثلاً أو مستطيل ويشترط فيه أن لا تلتصق فيه أربع مربعات بجانب بعضها فتشكل مربعاً كبيراً .
- **الخط الكوفي التريبيعي المتشابك:** حيث تتشابك الكلمات في تكوين هندسي رائع.
- **الخط الكوفي التريبيعي المتأثر بالرسم،** كالرسم على شكل نجمة هندسية لتتعد قراءة الكلمة الواحدة من عدة زوايا متشابهة .
- **الخط الكوفي التريبيعي المتأثر بالفلسفة:** حيث يحاول الخطاط تحقيق أو عرض حقيقة فلسفية دينية من خلال رسمه للخط والحروف.
- **الخط الكوفي التريبيعي المهيكل:** حيث يتصرف الفنان في هذا الخط فيجري عليه تعديلات جذرية في شكل الحرف كأن يغير في نسب الميل والدوران والحدود ليحقق شكلاً ما لكتابته.
- **الخط الكوفي المورق:** سمي مورق لأن التوريق هو زخرفة نباتية متداخلة فأوراق الأشجار تتبع من حروفه وتستقر الكتابة فيه على أرضية من أغصان الأشجار والنباتات اللولبية وأوراقها، وقد أبدع فيه الفاطميون

- **الخط الكوفي المنحرف** : أو المزهري وهو خط تملأ فراغاته وتزين بزخارف أصلها أشكال نباتية متطورة أخذت أشكالاً هندسية جميلة ، والتي عرفت فيما بعد بأرابيسك. عند الغربيين.
- **الخط الكوفي المظفور**: أو المعقود وعملية الضفر هي زخرفة نباتية أو هندسية متشابكة وانتشر هذا الخط خاصة في الأندلس.
- **الخط الكوفي المتلاصق**: في هذا النوع من الخط تتلاصق الحروف بالحد الأدنى للتلاصق الذي يسمح بقراءته.
- **الخط الكوفي المزيج نفسه**: حيث لا تدخل فيه زخارف نباتية أو نقوش وإنما حروف استطالت فملأت الفراغ وشكلت عنصر تزييني زين نفسه.
- **الخط الكوفي المتأثر بالرسم**: حيث يكاد الرسم يطغى عليه .
- **الخط الكوفي المتناظر**: أو المتعكس أو خط المرآة الكوفي لأن جانبه الأيمن يعكس ما هو موجود في الجانب الأيسر.

التقسيم التقليدي للكتابات الكوفية

ومن ثم فنحن نقسم الكتابات التي صدرت عن الكوفة إلى الأنواع الآتية:

١- خط التحرير المخفف ، أو خط (الديونة) والتدوين .

٢- الخط الثقيل اليابس نوعاً ، أو الخط التذكري .

٣- خط المصاحف .

اعتاد مؤرخو الفنون الإسلامية تقسيم الكتابات الكوفية تقسيماً تقليدياً إلى الأنواع الآتية :

١- الكوفي البسيط : وهو النوع الذي لا يلحقه التوريق أو التجميل أو التصفير، ومادته كتابية بحت، وقد شاع في العالم الإسلامي شرقه وغربه في القرون الهجرية الأولى ، وبقي الأسلوب المفضل في غرب العالم الإسلامي حتى وقت متأخر ، ومن أشهر أمثاله على ما مر كتابه قبة الصخرة في القدس وكتابة مقياس النيل في القاهرة وكتابة الجامع الطولوني ، وغالبية الكتابات التي ترى شواهد القبور في مصر وغيرها من بقاع العالم الإسلامي .

٢- الكوفي المورق : وهو النوع الذي تلحقه زخارف تشبه أوراق الشجر ، تنبعث من حروفه القائمة وحروفه المستلقية ، وبالأخص الحروف الأخيرة سيقان رفيعة تحمل وريقات نباتية متنوعة الأشكال .

ولقد بدأت ظاهرة التوريق هذه في صورتها الأولى في مصر قبل أن يتقدم القرن الثاني الهجري ، وبلغت في مصر درجة تبعث على الاعتقاد بأنها صادفت فيها مكاناً مناسباً لنموها واكتمالها وذلك قبل منتصف القرن الثالث الهجري ، ويغلب أن تكون نزعة التوريق هذه قد انتقلت من مصر إلى شرق العالم الإسلامي وغربه ، حيث قدر لها أن تلعب دوراً هاماً في زخرفة الكتابة ، وأقدم كتابة مورقة شرقي العالم الإسلامي كتابة في المسجد الجامع في ناين في فارس مؤرخة ٢٨٨هـ ، ويعتبر التوريق الفاطمي غاية ما بلغته هذه الظاهرة في مصر من النمو والتطور والارتقاء .

ومن أشهر الأفاريز المورقة ما يوجد في المقصورة في الجامع الحاكمي من نهاية القرن الرابع الهجري ، والأفاريز الموجودة في آمد شمالي العراق .

٣- الكوفي ذي الأرضية النباتية : (الكوفي المخمل) وتستقر فيه الكتابة فوق أرضية من سيقان النبات اللولبية وأوراقه ، وأشهر أمثاله في إيران وفي غزنة وفي مدرسة السلطان حسن بالقاهرة . ويلحق بهذا النوع كتابات تستأثر فيها الحروف بالجزء الأسفل من الأفريز وتشغل الزخارف النباتية كل فراغ يتخلف بعد ذلك .

٤- الكوفي المضفر : (المعقد أو المترابط) وهو نوع من الزخارف الكتابية التي بولغ في تعقيدها أحياناً إلى حد يصعب فيه تمييز العناصر الخطية من العناصر الزخرفية ، وقد تضفر حروف الكلمة الواحدة ، كما تضفر كلمتان متجاورتان أو أكثر لكي ينشأ من ذلك إطار جميل من التضفير ، وأقدم الأمثلة المعروفة من هذا النوع هي أوائل القرن الخامس الهجري ، عرفه شرق العالم الإسلامي وغربه في وقت واحد تقريباً .

٥- الكوفي الهندسي الأشكال : ويمتاز عن بقية أنواع الخطوط الكوفية بأنه شديد الاستقامة قائم الزوايا ، أساسه هندسي بحت ، ولا تزال نشأته غامضة ، وأغلب الظن أن فكرة الزخرفة بالطوب المختلف الحرق في العراق وفارس والمعروفة (بالهزارباف) هي التي أوحى به ، وهو شائع في مساجد إيران والعراق .

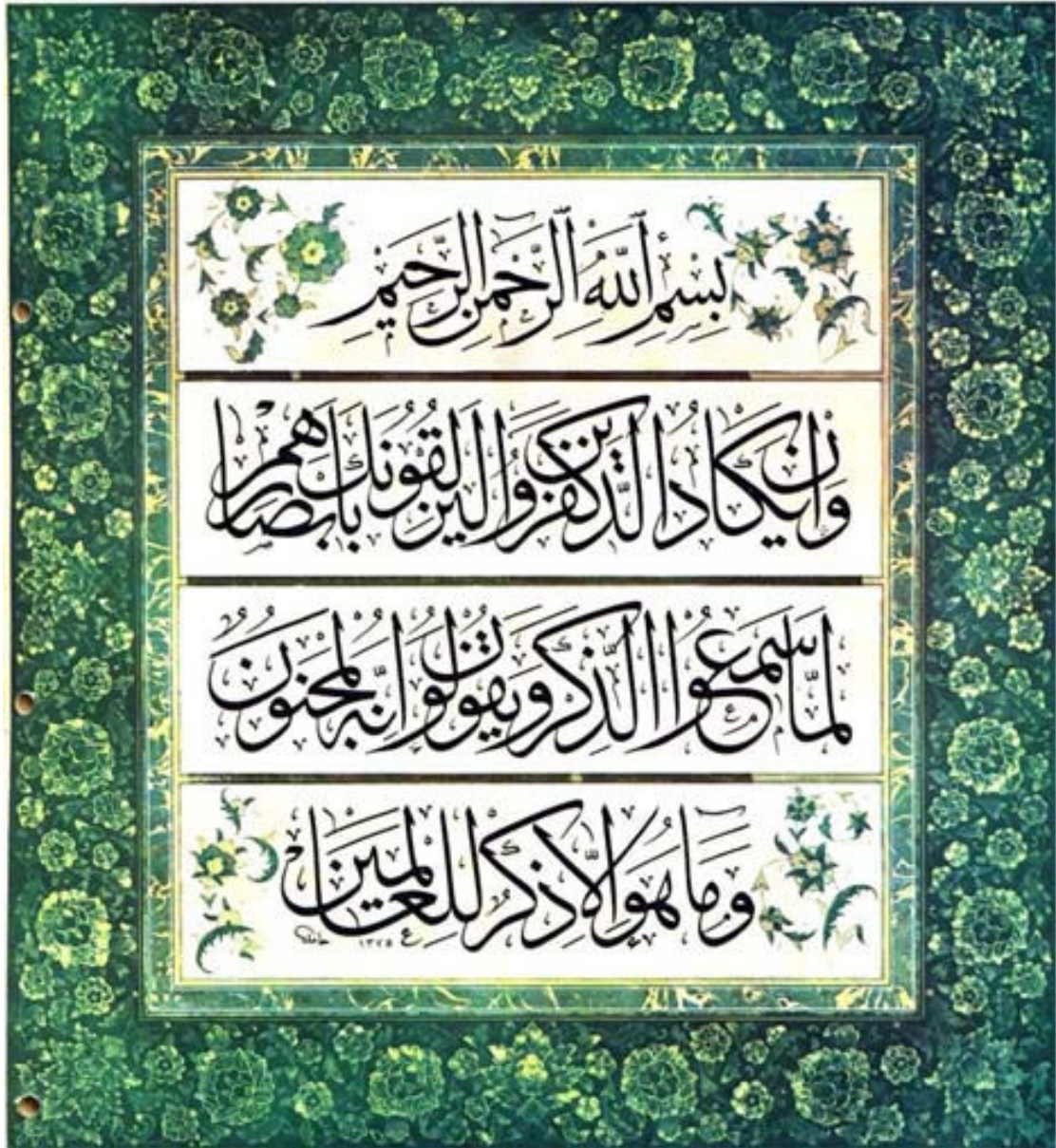
وأشهر أمثاله في مصر في مسجد السلطان قلاوون (٦٨٣/٦٨٤هـ) ومسجد زين الدين يوسف (٦٣٩هـ) وتربة أم السلطان المعروفة بتربة الوالدة صاحبة القبتين السلطانيتين بقرافة السيوطي من أواخر القرن السابع الهجري ، وكتابة في المسجد البرديني في القاهرة (١٠٢٥هـ) ، وكثرة استخدامه في العصر التركي الأخير ، وتوجد منه أمثلة في مساجد فوه ورشيد الأثرية .

ومن سلالات هذا النوع الكتابات الهندسية المثلثة أو المسدسة أو المثلثة أو المستدرة ، والنوع في مجموعة زخرفي بحث ، وربما تعذرت قراءة عباراته لشدة تداخلها واشتراك حروفها ، إلى هذه الأقسام سألقة الذكر اعتاد مؤرخو الفنون الإسلامية تقسيم الخط الكوفي ، وهو التقسيم التقليدي الذي جروا عليه الآن ، اضطروا إلى تقسيمه على هذا النحو لأنهم جعلوا الشكل أساس التقسيم ، ولهم كل العذر في ذلك لأنهم تناولوه على اعتباره عنصراً من عناصر الزخرفة .



الخاتمة:

وأخيراً أحمد الله أن مكنتني من كتابة هذا البحث عن الخط العربي في العصور الإسلامية:
وحسب رأيي فإن الخط العربي شكل حضارة زاهية لا زالت شمها تسطع حتى يومنا هذا .
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





المراجع

- ١- الفن الإسلامي ، سمير الصايغ ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان
- ٢- الخط العربي جذوره وتطوره ، تأليف/ إبراهيم ضمرة ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ٣- موسوعة الخطوط العربية وزخارفها، معروف زريق، دار المعرفة.
- ٤- تربيغات الخط الكوفي، مجلة المنهل/ ترجمة الأستاذ/ أحمد علي
- ٥- الفنون الإسلامية ، م.س.ديماند ، ترجمة/ أحمد محمد عيسى ، دار المعارف ، مصر